الباب الخامس

التلاميذ

«العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت إذ تعطيه كلك من إعطائه البعض على غرر» .
(أبو يوسف)

obeikandl.com

obeikandl.com

آلت إلى أبي حنيفة رياسة الحلقة وهو فى الأربعين بعد أن ظل عاكفاً على أستاذه قرابة عشرين عاماً سبقتها دراساته ورحلاته ، فإذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة : وإن أول ما يعظهم به هو ذاته ، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للإفتاء . فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهنى والاستعداد الروحى :

مرض أبو يوسف مرضاً أشفق عليه منه فكان يتعهده حيناً بعد حين ، وسار إليه آخر مرة فرآه مقبلا بعد أن أبل فرجع ثم قال : « كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير » . فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبى حنيفة ، وقصد إليه الناس يتحلقون حوله . وافتقده الشيخ فعلم جملة الخبر : فطوى السنين القهقرى واسترجع الذكرى . نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه فى نحو الثلاثين فى ضحوة العمر . والدهر صفو والزمان غلام ، يوم غره الغرور فتخيل ثم خال ، فعزم الفصال من أستاذه . وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة . لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل .

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه ، فلم يتخل عن تلميذه ، ودعا إليه صديقاً سيره إليه يحمل الرسالة الآتية :

اذهب فقل ليعقوب ما تقول فى رجل دفع إلى قصار (وهو الخياط الذى يقصر الثياب) ثوباً ليقصره بدرهم . فصار إليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره . ثم إن صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فرده إليه مقصوراً فهل له أجر ؟ فإن قال له أجر قل أخطأت : وإن قال لا أجر له قل أخطأت .

وكان يعقوب فى صباه يعمل عند قصار صبياً (وكان أبوه على ما قيل خياطاً) ولعل هذا سر اختيار السؤال . فإذا عجز الأستاذ الحدث عن

الجواب فى مسألة له بها من كل ناحية عهد ، فتعساً للعلم الذى يدعيه :

ومشى الرسول يحث الخطى إلى الأستاذ النجيب ، وأخذ الأستاذ يجيب، قال له أجره : قال أخطأت . فأطرق ملياً ثم قال لا أجرة له : قال أخطأت. وعميت الأنباء على الفتى فأبلس ، وأسر الندامة لما رأى الخطأ : : وانطلق من مجلسه انطلاق السهم إلى الرمية إلى حيث ملاذه وأستاذه .

قال أبو حنيفة : أظن ما جاء بك إلا مسألة القصار .

قال أبو يوسف : بلى :

أبو حنيفة : سبحان الله ! من قعد يفتى ، وقعد مجلساً يتكلم فى دين الله وهذا قدره ، لا يحسن أن يجيب فى مسألة من مسائل الإجارات !!

أبو يوسف : يا أبا حنيفة علمنى :

أبو حنيفة : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه ، وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه :

أبو يوسف : !!

أبو حنيفة : من ظن أنه يستغنى عن العلم فليبك على نفسه . . ؟ !

وبكى أبو يوسف على نفسه مدراراً وعاد إلى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره. ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة : « اعلم أن العمل تبع للعلم ، كما أن الأعضاء تبع للبصر ، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير ، ومثل ذلك الزاد القليل الذى لا بد منه فى المفازة مع الهداية ، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير » أو قوله : « من تكلم فى شىء من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت فى دين فقد سهلت عليه نفسه ودينه » ، وقوله : « من طلب الرياسة فى غير حينه لم يزل فى ذل ما بقى » ولذكر قول النبي عليه الصلاة والسلام : « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار » :

ولما تقـدم حماد بن أبي حنيفة يوماً ليصلي بالناس أخـذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره ، وقدم غيره ، فقال حماد : يا أبت تفضحني ! قال : « بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك إذ لو صليت فقال قائل أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسطر في الكتب ويبقى عاره إلى يوم القيامة ! » :

ولما أخذ يعلمه وجهه إلى دراسة علم الكلام حيناً ثم صرفه عنه فجادله حماد بقوله : « ألست كنت تأمرني به » . قال : « بلى وأنا اليوم أنهاك عنه » ، قال « ولم » ؟ قال « يا بني إن هؤلاء المختلفين في أبواب الكلام ممن ترى، كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة والاختلاف » ، ثم قال : « كنا نجتمع وكأن الطير تخفق على رءوسنا .. وقد بلغني أن قوماً يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام .. وإنما همة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة يشنع بها عليه فإذا بلغ الكلام هذا الحد ، فتركه خير » . وفي عبارة أخرى من عباراته : « كنا نناظر وكأن على رءوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم » .

وإذا كانت هذه نظرة أبي حنيفة إلى العلم وأهل العلم وهذا إنصافه للعلم من نفسه ومن ولده . فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم .

كلا : بل إنه ليضيف يداً إلى أياديه عليه فيهديه . ويجادله بالتي هي أحسن ، لا بقوارص الكلم ، ولا بمواجهة ثقته في نفسه مواجهة المستزري لذاته ، أو دراساته ، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه . ليكون في حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب :

ولقد كان هذا الصنيع الذي صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفتة الأستاذ الموفق يهدى فتاه ، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ ، لكان محتملا أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدى ، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظاً غليظ القلب ، ولم يمكر بتلميذه ذلك المكر الجميل :

وما أعظم ما يؤتى حسن التعبير من ثمرات : رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده ، واستدعى آخر فقال له

تكون أطول أهلك عمراً فأعطاه وكرمه وقربه . .

عاد أبو يوسف إلى الحلقة بعد أن تعلم فى هذا الدرس جماع علومه فأضحى يقول : « العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت إذ تعطيه كلك ، من إعطائه البعض على غرر » .

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم . ولو حاولنا أن نستقصى مظاهر هذا البر لكنا كمن يحاول أن يحصى نجوم السماء .

• • •

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة ، وبفن آخر هو الطريقة المثلى للإقناع هو الذى يحدث الجرس الأخاذ ، والرنين النفاذ ، ويحيل الصعاب بسائط . . هو تقديم العلم فى وعاء من الحب ، وخروج الكلام من القلب إلى القلب، واستيلاء المتحدث من فوره على الروح .

وليس يستطيع ذلك إلا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع فى طاقتها أن تبعث إلى أنفس الناس شعاعاً دافئاً دافقاً كأنه الكهرباء :

قال الحسن البصرى للواعظ الذى نفرت نفسه من كلامه : « يا هذا . . إن بقلبك لشراً أو بقلبى » .

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس . كما تجلت فى مناهج الدرس فسيطر على تلاميذه بالقصد والترفق ، والصبر والترفع ، فلم يكن يؤكل فى حلقته لحم الصديق ولا لحم الخصم . وسما عن مناوأة خصومه إلى الاستغفار لهم ، فملك ألباب تلاميذه وبهر أبصارهم ، وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان يسقيان من ماء التسامح ، وأن المؤاخاة فيهما أدنى إلى الهدى من الملاحاة ، وأن الغيبة قذف فى السامع قبل أن تكون قذفاً فى الغائب ، وأنها على كل حال لعنة على المغتاب .

وتواضع الأستاذ لله فرفعه فى أعين الناس وتلاميذه ، وبصروا منه بما يبصر به المقربون ، وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء . وأعزهم الله به وأعزه بقرباهم و « لا وحدة أوحش من العجب » كما قال عليه الصلاة والسلام .

قال عبد الله بن المبارك : قلت لسفيان الثورى يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة

عن الغيبة — ما سمعته يغتاب عدوًّا له ! قال : هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها !

قال له قائل : يتكلمون فيك ولا تتكلم فى أحد ! قال : « هو فضل الله يؤتيه من يشاء » .

ومن بعد ذلك ببضع قرون قال الحكيم الفرنسى لا برويير : « إن التواضع بالنسبة للشخصية كالظلال بالنسبة للصورة توضحها وتظهرها وتجليها » .

ولما سئل الفارابى : « أنت أعلم أم أرسطو»؟ قال : « لو أدركته لكنت أحسن تلاميذه » وقال : « قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أنى أحتاج لمعاودته » .

قيل لأبى حنيفة اتق الله . فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال : « يا أخى جزاك الله خيراً ، ما أحوج الناس فى كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم » .

ولم يدخل عليه داخل وخاض فى حديث الناس إلا قطع عليه خوضه .. وكان يقول : « إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس ، عفا الله عمن قال فينا مكروهاً ورحم الله من قال فينا جميلا . تفقهوا فى دين الله . وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم » .

قيل له هذا الذى تفتينا به هو الصواب بعينه . قال : « ما أدرى عسى أن يكون الخطأ بعينه » .

وقال يهذب تلميذه يوسف السمتى قبل خروج يوسف إلى البصرة : « ... ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك .. ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن الجميل .. وأفش السلام ولو على قوم لئام » ثم كشف له عن السحر الذى يسحر به الفقيه مناظريه قال : « ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس ، أو ضمك وإياهم مسجد ، وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافاً ، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول : فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا ، فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك ، فإن قالوا هذا قول من ؟ قل بعض الفقهاء ، فإذا استمروا على ذلك

وألفوه ، عرفوا مقدارك وعظموا محلك : وإياك والحقد وإن غدروا بك ، وأد الأمانة وإن خانوك » :

قال أبو يوسف : كان رحمه الله يغتم لمن يشكره على شيء أعطاه إياه ؛ ويقول اشكر الله تعالى فإنما هو رزق ساقه الله إليك .

كان هذا الخميص الصائم الذى لا تجـد فى داره إلا البوارى يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين ، ويبعث البضائع إلى بغداد فيشترى الأمتعة ويجمع الأرباح ليشترى بها حوائج المتعلمين ، يقوتهم ويمونهم ، ثم يدفع إليهم الدنانير قائلا : « أنفقوا فى حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فإنها أرباح بضائعكم ، مما يجريه الله لكم على يدى . . »

• • •

فلنختصر فى السرد ولندع عنان الحديث لأبى يوسف حيث يقول :

« كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال ، فجاءنى أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة فانصرفت معه فقال لى : يا بنى لا تمدد رجلك مع أبى حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش : فقصرت عنه كثيراً فى الطلب وآثرت طاعة أبى . فتفقدنى أبو حنيفة وسأل عنى فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخرى قال : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدى : فجلست. ولما انصرف الناس دفع إلىّ صرة وقال : استمتع بها فإذا فيها مائة درهم . وقال لى : الزم الحلقة فإذا فرغت هذة فأعلمنى : فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى ، ثم كان يتعهدنى وما أعلمته بخلة قط ، ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت » .

كان أبو يوسف فى نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع . جاء إلى الحلقة تاركاً حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى . وقد قصصنا من قبل بعض آثاره .

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب المجد جميعاً : **العلم الدينى** ، والعلم الدنيوى ، وأموال تكاد لا تحصى ، ووظيفة

obeikandl.com

دونها الوزارة ، وصداقة شخصية مع هارون الرشيد .

فلترجع البصر إلى روايته مستقرئين : فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله ، حديث رسول الله : « لا حسد إلا فى اثنتين ، رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » وبهذين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد ، فيمنح المال فى سبيل الخير ويقضى بالحكمة ويعلمها ، منحاً ليس له أول ولا آخر ، وتعليماً يكاد تضيق عنه حدود هذا الوجود .

وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء ، أريحيا مرهف الحس ، يدرك وحى العين ودخائل النفس . يعطى من فوره ، ويعطى فى الميعاد ، وقديماً قال الحكيم العربى : « خير الخير أوحاه » . وأقدم منه قول الرومان : « إن من يعطى فوراً يعطى مرتين » . والبدار فى ذاته فضل . ثم هو يعطى فى غيبة الناس فلا يشهد على العطاء إلا نفس صاحبه ، فى أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه عن مهانة الابتذال .

وأى رشاقة كرشاقة اليد العليا وهى تدفع المال إلى اليد الأخرى دون رنين أو التماع . فتقدمه فى صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب ، فى إسماع يسكر البصر . كل أولئك وهو مع تلميذ له لا بأس عليه إن هو خلع ثياب التحرج من شأنه . لكن القريب عنده كالغريب ، وكذلك الذى ترك له خمسة الآلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها ! وكذلك الجليس صاحب الثوب الخلق ، وذلك المدين الذى لا يجلس فى ظلاله ! يصنع الصنيع دائماً فى استخفاء وعلى استحياء ، وفى تلطف كتلطف الملتمس . يقطع بأنها السليقة المطبوعة لا السجية المصنوعة ، فإذا شكر أنكر الشكر ونقله إلى شيخه حماد .

قال أبو يوسف : « وكان يعولنى وعيالى عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيت أجود منك ، يقول : كيف لو رأيت حماداً ، وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه » .

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصى بين الأستاذ ورواده .

قال لأبى يوسف ينصحه : « وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابناً وولداً لتزيدهم رغبة فى العلم » وتلك النصيحة هى الصنيع الذى طفق يصنعه طوال حياته ، لا ينفك يسأل عن المريض من تلاميذه حتى يبرأ ، وعن الغائب حتى يرجع . وعن غير المريض وغير الغائب ، لم يعرف عنه أنه اختص ولده حماداً بعطف كما اختص تلاميذه ، قال عصام : « لم يكن لأحد من الحق كما لأبى حنيفة على أصحابه . وكان الذباب إذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه » .

والذى صنعه مع أبى يوسف فى مرضه والذى صنعه معه لما جلس للفتيا ، لم يك إلا أمثالا ميمونة العواقب : ففى واحدة شد أزر فتى كان يومه يبشر بغده . وفى الأخرى دعاه إلى الاستزادة من العلم ، فأوتى منه بسطة سمت به إلى أرفع الذرى بين أئمة الفقه عامة . ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه اليد بقوله : « إنى لأدعو له قبل أبوى وسمعته يقول إنى لأدعو لحماد مع أبوى » .

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه فى حين يسوى أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه . وكلاهما على الإنصاف : لأن أبا حنيفة علمه على رغم أبويه . وعلى النحو الذى كان يدركه أبو يوسف بقوله : « تغمد الله أبا حنيفة برحمته . وجازاه خيراً ، فإنه أطعمنى الدنيا والآخرة إطعاماً » .

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطائه إن الحديث نفسه ليشى بمقدار ما كان يتوخاه من إخفاء — والوقائع التى سردنا من قبل تنم عنه وتقرره — فكم من التلاميذ لم يعلنوا أياديه . لقد أعلنها الحسن بن زياد إذ كان يلازم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن ، وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم ، وأعلنها يوسف ابن خالد السمتى . واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه وإن كان فقيراً أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صيباً من العطاء حتى يتعلم ، فإذا تعلم قال له : قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام . وأجمعوا

أنه كان معروفاً بالإفضال على كل من جمعتهم به الأسباب . ورواية أبي يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مراراً ، ويسره إسراراً ، غير ممنون ولا مجذوذ ، ولا مصرد ، مما لا ينقع الغلة .

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده أو من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل ، ولوقع أجره على الله . لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء . ويزيده سمواً أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها فى ثواب الآخرة ، بل يدفعه للناس على أنه وجه أولى من غيره بالإنفاق ، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم . فالإنسانية العليا هى المبدأ والمنتهى. والأمل المشتهى . لا حسن ثواب الدنيا . ولا حسن مآب الآخرة .

ويرتفع الفضل إلى سماء ما طاولتها سماء إذ يصنعه صاحبه ليمكن الذين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالى أو المادى . نعنى به العلم الذى علمه هؤلاء التلاميذ .

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى فى حياة أبي حنيفة . وهى قيام مدرسة كبيرة منظمة ، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها . يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم ، ويسوى بينهم وبين ولده فى الإنفاق وفى التهذيب ، فى إخلاص للعلم كأنه العبادة .

جاء إليه رجل بكتاب شفاعة ليحدثه فقال : « ما هكذا يطلب العلم ، قد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيننّه للناس ولا يكتمونه . لا يكون العالم له خواص . لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه » .

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خلف من بعده مالا غير مارد للناس من ودائعهم . فهو العليم بأن ثروة المفكر هى الفكر ، فإذا خلف المفكرون من بعدهم أفكاراً فقد أنجبوا ، أما ما يخلفون من عروض وأموال فهى كسائر ما يخلف الموتى من العروض . تتناهى فى النقصان قدر ما تتناهى فى التداول والتعامل . وأما الفكرة فهى النور تتناهى فى الانتشار كلما تداولتها الأنفس ، وتتناهى فى الازدهار كلما أرهقها الأذى ، فلا على صاحب الفكر

إذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده ، فالدنيا كلها ولد له . ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال ، فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الأنبياء لا يورثون ، وأن ما يتركونه صدقة للعالمين ، فإذا سألت عمن تجيء مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشذوذ فى السؤال .

إنما يبقى الفكر ، ويبقى الذكر ، والفكر والذكر لا يفنيان كما يفنى المال ويزول ، وإن حفل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى ، إلا كما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد إذ تطبق عليهم أجفان الثرى ،

إنما الفكرة شيء إلهى فهى كائن حى لا يموت . وهى الجوهر الحر الذى يورث . ويدفع الضريبة عنه الموتى والأحياء على السواء — ولا يخلد المفكر إلا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع والأتباع ، ولهذا كان تلاميذ أبى حنيفة قطعاً من نفسه ، ربط بينها وبينهم كما ربط بينهاوبين أستاذه فى شجرة النسب العلمى يذكرهم مع أصوله وأستاذه كلما مثل بين يدى ربه . قال : « ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدى وإنى لأستغفر لمن تعلمت عليه علماً ، ومن علمته علماً » .

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان إلا من البوارى . وهو هو الذى يوزع الدنانير آلافاً مؤلفة . وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها . قال صاحبه : لك عيال ؟ قال : الله تعالى للعيال . . وإنما قوتى أنا فى الشهر درهمان . . ثم قرأ : (وفى السَّماء رِزْقكُم وما تُوعَدُونُ) .

* * *

أما الظاهرة الثانية فهى أن الرجل الكبير يعنى ، أول ما يعنى ، بأن يبنى الرجال الكبار . ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب . وفى تاريخ الحقبة الحديثة خلد جمال الدين الأفغانى بغير مؤلفاته ، وبتلاميذ سموا إلى أرفع ذرى المجد فى ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبى . كما كان محمد عبده فى الإصلاح الدينى ، وسعد زغلول فى الإصلاح السياسى ، وإبراهيم الهلباوى فى المحاماة ، مع قليل من الرجال والمؤلفات ، هى السجل الذين حصر

التاريخ فيه تركة الزعيم الفكرى العظيم الوارد من الأفغان أو من إيران ، وروده آباء الإمام الأعظم .

ولأن يبنى الرجل الكبير رجلا كبيراً خير على الوجود البشرى من كل آثاره ، فكيف إذا بنى رجالا كباراً عظماء .

فلعل النفس الإنسانية خير ما عبرت به يد القدرة الإلهية عن الله سبحانه . والرجل الصالح يبنى الممالك ويقيم المذاهب ويشرع الشرائع ويبنى الرجال من جديد . .

إن من الرجال من كان أجدى على الإنسانية من إحدى القارات الخمس .

لقد كان أبو حنيفة ملهماً عندما احتضن أبا يوسف ومحمداً وزفر والحسن وباقى الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم ، فى جهد يومى متصل ، يهدف إلى غاية كبرى ، تتجمع عندها أهداف كل يوم ، وكل تصرف، كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع فى النهر الجارى ، فيربو الوشل ، وتصبح الحفنات من الماء فيضاناً زاخراً كالسيل العرم ، تزحم البحر وتعان وجودها فى أجلى مجاليه !

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده ، وأن يجعل من الضعف الإنسانى قوة عارمة ، ومن العمل الفردى عمل فيلق ، ومن الجهد اليومى جهد زمان ، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طنيناً فى سمع التاريخ وأنغاماً فى فم الزمان .

بهذا بلغت مدرسة أبى حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة ، فإذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة ، فيضعون أيديهم على مصاير التشريع الإسلامى فى شتى بقاع الدولة . وغدت الأسماء التى تلوناها قبل ، يتحلق أصحابها حول الشيخ ، سجلا بأسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول . وبدأت حركة التدوين على طراز الإنتاج الضخم الذى بدأه محمد فى كتبه وجرى على غراره الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة فى الزمان كله ، وإذا بالمدرسة تخرج نساكاً وزهاداً إلى جوار الحكام . فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا ، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء . ويا لها من يد على العلم : أن يتخذ سبيلا إلى السعادة فى الدنيا ، لا تبتلا محضاً أو رهبانية خالصة ! وبهذا أقبل الناس

على ارتياده فى سبيل الله ، ومن أجل الحياة ، مدفوعين بالدافع الربانى والدافع الإنسانى معاً .

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس . فتولاها تلميذان كانا من الدولة الإسلامية فى أزهى عصورها حضارة ، أعظم رجالاتها جدارة . نعنى بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن . وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم . فأضحوا فى عين الدولة وأعين الناس . اتجاهاً فكريًّا جديداً هو الاتجاه المفرد الجديد بالإسلام .

* * *

كأن العناية الإلهية قد كشفت لأبى حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف فى قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة : « لكأنى بك قاضيًّا » ! وهى النبوءة التى قال عنها الرشيد فيما بعد : « لعمرى إن العلم يرفع دنيا وديناً » وترحم على أبى حنيفة ثم قال : « كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه » .

كان أبو يوسف فى السابعة والثلاثين عندما توفى أستاذه كما كان أرسطو فى السابعة والثلاثين إذ مات أفلاطون ، ولم يرأس أبو يوسف الحلقة كما لم يرأس أرسطو مدرسة أفلاطون ، وإذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك .فإن رياسة زفر للحلقة بعد أبى حنيفة لم تغضب أبا يوسف ، لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم فى حلقة أبى حنيفة .

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدى والهادى والرشيد ، وبلغ مجده أوجه فى عهد الرشيد إذ نقلت له عن النظام الفارسى وظيفة قاضى القضاة أو عالم العلماء (موبذان موبذ) . كان هو الذى يوصى الخليفة بتعيين القضاة فى شتى أرجاء الدولة ، وكان يؤاكله ويحج معه — عدلا له على بعير — ويؤمه ويعلمه . ويدخل عليه راكباً بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد « جاءت به معتجرا ببرده » وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر .

كان معه كأرسطو مع الإسكندر ، تلميذين فى عمر الورود لأستاذين فى خريف العمر . كتب له فى كتاب الخراج يقول : « وقد كتبت لك ما أمرت وشرحته لك وبينته فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه ، فإنى قد اجتهدت

لك فى ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً . . . »

وبلغ من الثراء أن قدرت تركته بمليونين . وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه فى مقابر قريش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زبيدة أم الأمين .

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق فى فراشه . سمعه سامع فقال : لو شاء الله أن يجعل العلم فى جوف طير لفعل ! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثاً فى السماع الواحد ثم يقوم فيمليها على الناس ! . . .

أتيح لفقه أبى حنيفة على يد أبى يوسف ما يتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح إذ يهيىء لها القدر رجالا فى دست الأحكام . وهى ظاهرة تولاها المؤلفون الغربيون فى السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض .

وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقهاً رسميًّا بالقضاء وبالإفتاء ، وبالتدوين ، وخاصة بتعيين أتباعه فى كراسى القضاء . حتى صار الناس فى بغداد يسمون مذهب أبى حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبى حنيفة على المذاهب كافة . وعظمت تلك القوة — كما عبر أحد خصوم أبى حنيفة — (لأن العلم والسلطنة حصلا معاً) :

أو كما قال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بداية أمرهما بالرياسة والسلطان ، الحنفى بالعراق والمالكى بالأندلس .

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفى لقاحاً جدد شبابه وأكسبه المناعة ، هو اللقاح العملى الذى يتجاوب مع أطوار الحياة ، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة، وبفقهاء الأمصار، وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها فى الحضارة .

وفرض أبو يوسف سلطانه فى كل مكان حتى إنه ليجعل ابنه يوسف قاضياً على الجانب الغربى من بغداد وإماماً للحجيج عندما حج الرشيد وفى صحبته أبو يوسف .

كان شريك خصم أبى حنيفة يحج فى نفس العام وسأل عمن يصلى بالناس ، فقالوا له يوسف بن أبى يوسف قال : الآن طاب الموت !

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه ويا له من سلطان على صاحب السلطان !

كان إذا حزبت الأمور فزعوا إليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات.

زعموا أن زبيدة غاضبت هارون الرشيد – فحلف الرشيد يميناً بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى بلد يدخل فى ولايته ، فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعيله فى نفسه ، والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حبًّا وشغفها : فأظلمت الدنيا فى عينيه ، والظلام فى عين الرشيد هو العمى فى أعين البلاط . . ! فاشتد الخطب وفدح الأمر ، وكلما مالت الشمس فى الأفق ، ودنت حمرة الشفق ، سرت فى أبهاء القصر رعدة الفرق ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر . ودارت أعين الحاشية كالذى يغشى عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر الله ؟ . .

ألا إن نصر الله قريب . إن فقيه البلاط بين رجال البلاط ! يا أبا يوسف أفتنا فى أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين !

فليأت أبو يوسف بالخوارق . قال . . فلتبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد فإنه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد . .

والله سبحانه وتعالى يقول : (وأنَّ المساجِدَ لِلهِ فلا تَدْعوا مَعَ اللهِ أحَدَاً) .

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لإمامة المسلمين فصلى الرشيد ركعتين وسلم ، ونادى أبو يوسف : يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر . فنادى رجل من أهله مكة : يا أبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك ! فأجاب أبو يوسف : « لو كنت أعلم لما تكلمت فى صلاتك ! » .

كانت هذه وحدها كافية لتبهت الرجل . لكنه استمر يقول : نحن مهبط الوحى وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء . قال أبو يوسف : « ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت إلينا فى الشعاب والأودية فاستقرت عندنا . كذلك فعل المطر » .

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف فى حضرة الخليفة . . !

أفلم يكن الرشيد على حق إذ يقول : « هاتوا لى مثله » !

خوصم إليه أمير المؤمنين الهادى فى بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له ، لكن الحق كان لخصمه ، قال الهادى لأبى يوسف : ما صنعت فى الأمر الذى نتنازع إليك فيه ؟

قال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين يسألنى أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده على حق ، قال الهادى : وترى ذلك ؟ قال كان ابن أبى ليلى يراه : قال الخليفة أرد البستان عليه . . . !

لكنه إذ يحتال ليرد الهادى بستان الرجل إليه لا يحتال من أجل من دونه : شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوماً فرد شهادته فعاتبه الخليفة قائلا : لم رددت شهادته ؟ قال : سمعته يقول أنا عبدك ، فإن كان ، صادقاً فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً لكذلك .

بل إنه ليحلف الرشيد فى قضية رأى أن يحلف فيها الرشيد ! مع ما كان من تسامى السروات ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات إليهم .

جلس الهادى يوماً للمظالم وبجواره عمارة بن حمزة ، فوثب رجل وتظلم من عمارة فى شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم — ادعى أنه غصبها منه . قال الخليفة لعمارة ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ قال : إن كانت الضيعة لى فهى له ، وإن كانت له فهى له ! ووثب وانصرف !!

وقالوا : كتبت أم جعفر إلى أبى يوسف تقول ما ترى فى كذا ؟ وأحب الأشياء إلىّ أن يكون الحق فيه كذا . فأفتاها بما صادف هواها ، فبعثت إليه بحق فيه فضة ، فيه حقاق مطبقات ، فى كل واحدة منها لون من الطيب ، وفى جام دراهم وسطها جام فيه دنانير : فقال له جلساؤه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » ، قال أبو يوسف : « ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن » .

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتحرج عن قبولها أو لكافأ المهدى بأضعافها .

وفى سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول : « اللهم إنك تعلم أنى لم أجر فى حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً ، وقد اجتهدت فى الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم . كلما أشكل علىّ جعلت أبا حنيفة بينى وبينك ، وكان عندى والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه » وعرف الناس وصيته ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لأهل مكة ، و ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف لأهل المدينة ، و١٠٠,٠٠٠ لأهل بغداد و١٠٠,٠٠٠ للبلد الذى جعل صبى القصار أستاذاً للرشيد يهب مئات الآلاف ! نعنى به الكوفة .

أما محمد بن الحسن الشيبانى فلم يكن من الخلفاء كأبى يوسف ومع أنه تتلمذ على أبى يوسف بعد وفاة أستاذهما ، فقد كانت بينه وبينه وحشة فى آخر أيام أبى يوسف حتى وفاته . ولى قضاء الرقة للرشيد ثم عزل ثم عاد الرشيد فاستقصاه واستقضاه .

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبى حنيفة وأبى يوسف وفقهه هو فى كتب هى السجل التاريخى للمذهب ، أما الكتب المنسوبة إلى أبى حنيفة « العالم والمتعلم » وكتابه لعثمان البتى عن الإرجاء « والفقه الأكبر » ووصية أبى حنيفة إن صحت ، فهى تدور حول العقيدة .

أما كتب أبى يوسف فقد قيل إنها بلغت أربعين كتاباً لم يصل أكثرها إلينا ، وبحسبه شاهداً على عبقرينه كتابه « الخراج » الذى كتبه للرشيد يبصره بالحكم جواباً لطلبه .

وأما كتب محمد فهى المعروفة بظاهر الرواية «السير الكبير والسير الصغير» فى فقه الحرب « والجامع الكبير » وهو فى التفسير والأصول « والجامع الصغير » ، وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة ، والمبسوط أو « الأصل » وسمى كذلك لسبقه الكتب الأخرى فى التصنيف والزيادات وزيادة الزيادات والكيسانيات والرد على أهل المدينة « وهو كتاب رواه الشافعى » وقد قرئ أكثرها على أبى يوسف .

وإذا كان الفقه الحنفى قد دان به الثلثان من أهل الإسلام ، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرق أوربا وبقاعاً من روسيا وأصبح مذهباً رسمياً

فى مصر ، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دبت فيها الحياة ، فإن لهذه الكتب الصغرى فى عددها تلك اليد الكبرى فى آثارها .

إن المبسوط وحده يقع فى ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من ذوات القطع الكبير . . ! كان الفقه بحاجة إلى الصون فحماه محمد بذلك السور المنيع الذى تتألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق :

كان عمل أبي يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازماً للفقه عند النشأة الأولى ليأتلف العلم مع العصر ، ومع الواقع ، ولتحمله إلى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان ، وأما عمل محمد فكان لازماً ليوجه الفقه فى طريق الخلود فتراه العصور جميعاً .

ولما عين محمد فى القضاء شاء زميله وأستاذه « قاضى القضاة » أن يكون فى الرقة بعيداً عن بغداد ، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان . إذ هيأ له نجاة من زحمة العاصمة ولجاجة الحكام ، فتفرغ للعلم حتى عهد فى أعماله الشخصية إلى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف ، وكان يحيل أهله على الوكيل ويقول : « لا تسألونى عن حاجة من الحوائج فإن فيها شغل قلبي وخذوا ما بدالكم عن وكيلى فإنه أفرغ لقلبي » .

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهرى بجمع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجته عن مؤلفاته : « هذه الكتب أشد على من ثلاث ضرائر » .

رحل محمد إلى المدينة فى حكم المهدى (سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٩) ليستقى العلم من مالك بن أنس وروى عنه « الموطأ » وتعتبر روايته للموطأ من أجود رواياته . واختلط بالكسائى فى عهد الرشيد فعلمه الكسائى اللغة وعلم الكسائى الفقه .

قالوا : جلس الكسائى يوماً يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضى القضاة فقال للرشيد هذا الكوفى قد استفرغك وغلب عليك : فقال الرشيد : يا أبا يوسف إنه ليأتينى بأشياء يشتمل عليها قلبي : لكن جواب الرشيد عن الكسائى لا يشفيه ، ولا يكفيه ، فأقبل على أبي يوسف يقول : يا أبا يوسف هل لك

فى مسألة ؟ فقال : « نحو أم فقه » ؟ فقال : بل فقه ! فضحك الرشيد حتّى فحص برجله وقال للكسائى : تلقى على أبى يوسف فقهاً !! قال الكسائى : نعم . يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق أن فتحت الدار (وفتح الهمزة فى أن) قال أبو يوسف إذا دخلت طلقت : قال أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب ؟ قال : الكسائى : إن قال أن وجب الفعل ووقع الطلاق وإن قال إن فلم يجب ولم يقع الطلاق !

قالوا : فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتى الكسائى إلى الرشيد .

ولما حشر الشافعى إلى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمل محمد فى إنقاذه . وتوثقت بينهما عرى الود فبهر لبه .

وقف رجل على الشافعى فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء قال : « وهل رأيت فقيهاً قط إلا أن تكون رأيت محمد ابن الحسن ! فإنه كان يملأ العين والقلب : وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسن) وقال فيه : « كان محمد إذا أخذ فى المسألة كأنه قرآن ينزل . لا يقدم حرفاً ولا يؤخر » وقال : « ليس لأحد على منة فى العلم ما لمحمد على » .

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد إلى منزله ويخلو به إلى آخر الليل .

قرأ الشافعى كتب محمد ، بل حمل منها وقر بعير كما قال . فتعلم منها فقه أبى حنيفة وفقه الأقدمين. فها هو ذا محمد تلميذ أبى حنيفة ينهل من مالك وينهل منه الشافعى الذى علم ابن حنبل، فتتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة، ويروى علومه فيرتوى منها الأئمة والمتفقهة والناس جميعاً .

روى الملك عيسى بن الملك العادل الأيوبى أن عالماً يهودياً كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد ، فلما وقف عليه قال : من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبى أشهد أنه على حق . فأسلم .

قال الملك : إن هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه. ومسائله معروفة . فإن من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالماً بارعاً بستة علوم : أولها الكتاب

العزيز ، والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب ، ومن لم يكن مجيداً لهذه العلوم لم يعرفه إلا تقليداً .

أقبل الرشيد يوماً على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمداً ، ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآذن يقول : محمد بن الحسن . فوجبت القلوب ، فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال : «كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها . إنك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وإن ابن عمك صلى الله عليه وسلم قال : (من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار) وإنه إنما أراد بذلك العلماء . . . » قال الرشيد صدقت يامحمد .

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويا لها من عقيدة ! لكن الأسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما في حضرة الرشيد وضد الرشيد . . وعلى أعين الناس . ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء . . . !

لقد كان الرشيد حفيًّا بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العلم .

بلى : كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم ، وبعلم رقوفه كفرد من رعاياه ، يعدل تماماً موقف محمد من الرشيد ، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم .

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه « السير » بعث الأمراء — أولاده — لسماع دروسه فيه .

ولما خرج يحيي بن عبد الله العلوي على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل بن يحيي البرمكي من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به يحيي من معقله ، وتوشجت المودة بين يحيي والرشيد زماناً حتى رفع السعاة عن يحيي ما يريب ، فسيء به وضاق به ذرعاً ثم حبسه وهم به يريد قتله ، لكن العهد كان مسئولا ، و « المسلمون عند شروطهم » كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ، فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجاً ، ودعا محمداً وأقرأه العهد وسأله هل هو صحيح ؟ فأجاب محمد : صحيح . وراح الرشيد يجادله وهو لا يتحول !

بل قال محمد : ما تصنع بالأمان ، لو كان محارباً ثم ولى كان آمناً !

وطلب الرشيد فقيهاً آخر هو أبو البختري فقرأ الرجل العهد ، وأفتى بنقض العهد ، بل أقبل يعدد وجوه النقض ، وكانت نهاية فتواه ، وإن شئت فقل غاية فتواه ، أن صدر نطق الرشيد : بلى وأنت قاضي القضاة !

ذلك أبو البختري الذى اختصه ابن حنبل بوصف أنه « كذاب » .

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد : هل تحفظ فى هذا شيئاً ؟ قال : حدثنى . . عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطير الحمام . . !

وقف محمد هنا فى وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد . . !

ولم يقف هناك إذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء . . وهناك رضى الرشيد لأنه آثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا ، وهنا لم يرض لأن مصلحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد ، وكان هارون صاحب دولة ، فرأى من أجل دولته ما رأى .

صنع الرشيد ذلك مع أنه كان يبعث إلى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع إلى الفقهاء ، وكان إنفاقه على العلماء إغداقاً ، يعهد بأولاده إليهم ، بل كان يخدمهم: وفد عليه أبو معاوية الضرير وجيء بالطعام فأكل بين يديه . وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما . وقال : أتدرى من يصب الماء عليك ؟ قال: لا . قال : أمير المؤمنين . قال أبو معاوية : « أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين فى الآخرة » .

وفى سنة ١٨٩ مات محمد بالرى وهو فى صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائى فى نفس الرحلة . ولما دفنا قال الرشيد : « دفنت اليوم اللغة والفقه » .

* * *

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحبا أبى حنيفة تجرى اسمهما فى التاريخ على أنهما « الصاحبان » .

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدماً فى مجلس الإمام وبقى طيلة عمره مشتغلا بالعلم ، ولما عرض القضاء عليه أبى فأكره على القضاء واختفى ، وهدمت داره فخرج ، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل . ولم يخض الغمرات إلى الدنيا فلم يتعرض إلى ما تعرض له الصاحبان « أبو يوسف ومحمد » .

كان أقيس الحنفية ، وكان أكبر التلاميذ سناً فرأس الحلقة لما هوى النجم ولما مات فى الثامنة والأربعين من عمره خلفه فى رياسة الحلقة أبو يوسف .

شك رجل فى طلاق زوجته فسأل شريكاً القاضى فقال : طلقها ثم راجعها . وسأل الثورى فقال : إن كنت قد طلقتها فقد راجعتها ، ثم جاء إلى زفر فقال : هى امرأتك حتى تتيقن من طلاقها .

ذلك بأن من الأصول التى وضعها أستاذه أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ ثم شك فى الحدث فهو على وضوئه .

وعرض الرجل على أبى حنيفة هذه الأقوال فقال : أما الثورى فقد أتاك بالورع ، وأما زفر فأتاك بعين الفقه ، وأما شريك فهو كرجل . قلت : لا أدرى أصاب ثوبى بول أم لا . فقال : بل على ثوبك فاغسله !

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبى حنيفة حتى بعد أن مات . .

شهد النضر بن إسماعيل وحماد بن أبى حنيفة لدى شريك ، فرد شهادتهما وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر . فقال : لأنه يبيع الصلاة « إذ كان إماماً فى المسجد يتقاضى فى الشهر دينارين » فقال له النضر ، وأنت تبيع القضاء : « إذ كان قاضياً بأجر » فأجابه شريك فإذا شهدت عندك فلا تقبل شهادتى ! !

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكاً فلما بصر بهم قال : وراءك يا حماد . . لست كالنضر . أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل السماء . .

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة ، ويأتى بالدليل من غير حشو فإذا ناظر أبا يوسف فكأنه يأخذ بحلقومه . كان يناظره مرة وهو مستند إلى أسطوانة المسجد منتصباً وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول : هذه أبواب كثيرة اركض فى أيها شئت. وانتهى الأمر بأبى يوسف إلى أن جلس بين يديه .

ولما تزوج دعا أبا حنيفة إلى عرسه ، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الإمام الأعظم : « هذا الإمام من أئمة المسلمين فى حسبه وشرفه وعلمه » .

وفى سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه إلى لقاء إمامهم فى الرفيق الأعلى .

أما الحسن بن زياد اللؤلؤى فقد تتلمذ بعد وفاة الإمام على أبى يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب : « المجرد لأبى حنيفة ، وأدب القاضى . والنفقات والفرائض والوصايا . والخصال » وعمل فى القضاء . وفتحت عليه أبواب السماء برزق منهمر فأضحى – وهو الذى كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبى حنيفة ليمير بناته – أضحى له مماليك يكسوهم مما يكسو به نفسه .

كان يخشى الله فى فتواه . أفتى رجلا فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفًا لديه فاكترى مناديًا يقول : إن الحسن أخطأ فى تلك المسألة حتى عاد إليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل إلى الحق .

وكان إذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فإذا قام من مجلس القضاء عاد إلى ما كان عليه من الحفظ ! ! فاستعفى من القضاء .

وفى سنة ٢٠٤ ترك الدنيا .

وأما حماد بن أبى حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة فبغداد كلها فالبصرة ، وتخرج ابنه إسماعيل عليه وعلى أبى يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقى ببغداد وبالبصرة والرقة .

وتخلى يوسف بن خالد السمتى للعبادة .

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن . أشخصهما المهدى إليه من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما : أيكما مندل – وكان أصغر وأشهر – قال مندل موجهًا نظر الخليفة : هذا حبان .

ويحيى بن زكريا مات قاضيًا على المدائن للرشيد .

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر ، ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة : أنتم مسار قلبى وجلاء حزنى . .

وتولى حفص بن غياث للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عامًا وقضاء بغداد عامين فحبس المرزبان وكيل زبيدة فى دين !

كان جالساً للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال : لا حتى يفرغ الخصوم .
فلما فرغوا لبى دعوته .

ولما عينه أبو يوسف فى قضاء الكوفة بعث إلى أهلها يقول : يا أهل الكوفة انشروا دفتراً لتكتبوا نوادر قضاياه .

وأما عبد الله بن المبارك فكان إماماً فى الفقه وبطلا فى المعارك . كانت أمه خوارزمية ، وأبوه تركياً ، وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ . . ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين .

وهذا أسد بن عمر البجلى : يروى عنه الإمام أحمد بن حنبل . تولى القضاء للرشيد ببغداد وواسط . . وقيل تزوج ببنت الرشيد .

وتولى على بن مسهر قضاء الكوفة .

وهذا داود الطائى أرفع الناس صوتاً فى الحلقة . ينقطع إلى العبادة ويخرج من الدنيا فى حياته ! . . أرسلت إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فأعادها لمصدرها ، وردها المرسل مع بدرة تماثلها وغلامين قال لهما : إن قبل البدرتين فأنتما حران . فذهبا إليه قالا : إن فى قبولك عتق رقابنا . قال : إنى أخاف أن يكون فى قبولها وهق رقبتى فى النار . رداها إليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطينى أنا . . .

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده إسماعيل بن حماد : « أصحابنا ستة وثلاثون رجلا . ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، وفيهم ستة يصلحون للفتوى ، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبى يوسف وزفر » .

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة فى مذهبهم ! وفى سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير فقيل وقيل :

وقيل بالتخيير فى فتواه إن خالف الإمام صاحباه
وقيل من دليله أقوى رجح . . وذا لمفت ذى اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبى حنيفة وتلاميذه . جاءوا إلى الحلقة غفلا مغمورين . منهم الحفاة والعراة : ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة ، بل عمداً للفقه الإسلامى ، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التى نقلها إليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حملوه منها عنصراً أساسياً فى نهضة الدولة وصلاح الدنيا . بما فيه من طابع عملى وعمق فكرى . حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو يتحدث عن اعتزاز المتعلمين بالعلم: «..قال عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا، وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضياً وما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين ، حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال . وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان . . »

كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالنور الذى سيجىء . . يدركون وهم بحذاء أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس ، ويحسون وهم معه ما نحسه نحن الآن معهم وما كان يستشعره (ميشيل أنجلو) عندما كان يقرأ هوميروس فيقول : « كلما قرأت هوميروس نظرت إلى نفسى لأتحقق مما إذا كنت قد ارتفعت عشرين قدماً فوق الثرى . . ! » .

openkandil.com